باب المراسم والمياحث

صورة فلمية

ديمتري بك خلاط

بقلم نقولا شكري

كل ما هو خير وقوة في الطبيعة يستحيل في الغالب الى مزايا وصفات سامية في الانسان . كذلك استحال اخلاف النورمانديين الذين أخذوا الى غرب اوربا من ملاّحين وتجار ومستعمرين بسطوا جناح سيطرتهم على جزء من العالم لا تغيب عنه الشمس

ومن الممكن ان يقال ايضاً عن طبيعة الشرقي انها بمقدار ما تختزن من الخير منذ القديم لا تزال تهب الشرقيين مزايا وصفات يندر ان توجد في غيرهم . ولم تكن رمال الصحراء في بوادي الحجاز بخلو من هذه المزية فان العرب قد استحالوا من رجال أكفاء الى فاتحين وحكّام

وكأنما يعد من تقاليد الشرق ان يكون الشرقي تاجراً وفي الوقت نفسه أديباً او عالماً واسع الاطلاع او بالعكس مشتغلاً بالعلم وفي مزاجه حب العمل والتوسع في الرزق بوسائل تنم عن ذكائه واتصاله القوي بالطبيعة عن طريق المعاملات المادية

ولقد سبق ان كتبنا عن شرقي كبير من المعاصرين الذين استحال فيهم خير الطبيعة الشرقية الى مزايا وصفات سامية ونعني بذلك كبير تجار الخشب الكاتب الباحث أسعد باسيلي

ونود ان نقوي هذا المثل في نفوس القرّاء بوصف شخصية اخرى من هذا الصنف من الرجال الذين كان اساس نجاحهم يرجع رأساً الى الفطرة . شاعر وتاجر من الطراز الاول لا تزال حياته واعماله مثلاً يستحق ان يقتدى به هو حضرة صاحب العزة العالم العامل ديمتري بك خلاط

قلنا ان خير ما في الطبيعة يستحيل بالمعاصرين الى مزايا ومواهب سامية ولعلّ اصدق صورة لذلك تتمثل في ديمتري بك خلاط

بدأ حياته بالاشتغال بالادب والعلم وهي وظيفة لا تزال احدها من الوظائف الكمالية ولكن يغيب عنا دائماً انها من تقاليد الفطرة الشرقية التي كأنها تأبى ان تقطع شوطاً في سبيل النبوغ والنجاح قبل ان تدل على مواهبها السامية أما في العلم او في الادب . وقد كان نبوغه في التجارة والاعمال المادية الصرفة بعد ان اشتهر اسمه كشاعر وكأديب . وكانت كبريات المجلات العربية قد

فتحت لكتاباته مستحدثها فانتج كثيراً من قبل ان يحقق بذكائه ذلك النجاح العظيم الذي وفق اليه في الاعمال التجارية . ولم يكن من الممكن لرجل دلّ على مواهبه السامية في الادب ان يؤدي مهمته الكبيرة في الاعمال المادية من دون ان يحقق معجزة تميزه وتشير الى فضله وقد كانت العادة الثابتة لعهدهم ان التجار يستوردون بضائعهم من الاسواق الكبيرة في اوربا ولكن ديمتري بك خلاط التاجر خالف هذه السنّة بذكائه وجعل يستورد هذه البضائع عينها من مواردها الاصلية فخلق لنفسه خطوطاً تجارية جديدة ساعدت كثيراً على نجاحه . ويجب ان نعترف بأن النجاح الكبير في التجارة ليس بالمهمة اليسورة ولكن ديمتري بك خلاط امتاز فضلاً عن مواهبه بالجرأة وهي رأس مال التاجر وربما كانت جرأته هي اساس اتساع معاملاته عند ما اختار ان يكون من رجال الاعمال . وهي تلك الجرأة نفسها التي جعلت منه في بادىء الامر أي قبل هجرته الى مصر كاتباً حرّ الفكر لا يطيق الصبر على الافتئات والاضطهاد بالحقوق . فقد يذكر لديمتري بك خلاط الاديب تلك المقالات الزلقة القوية التي ثار بها على رجال الحكومة في بيروت وطرابلس الشام وقت ان كان الشاعر الرقيق والاديب السليم الذوق والافكار . وقد استحال ذلك الشاعر عند ما بدت له وجوه النقص التي يكابدها الجمهور الى صحافي جريء لا يهاب تهديداً ولا وعيداً في سبيل نصرة الحق فأفضت خلافه الى قيام النزاع بينه وبعض أهله . بل لقد أفضت الى هجرانه لموطنه وهبوطه مصر حيث صار من رجال الاعمال البارزين

ولم تكن هجرته سبباً في ظهور مواهبه وفطرته الشعرية فقد اشتهر بهذه المواهب وتلك الفطرة وهو بعد فتى في موطنه طرابلس الشام وكان يملأ مقالاته وشعره اعمدة « الجنان » و« الجنة » اللتين كان يصدرهما المرحوم المعلم سليم البستاني فقد خص الاولى بالادب والثانية بالسياسة وربما كان من المستظرف ان نذكر هذه المناسبة محاولة قامت بها الجنان وتشترك في تعريب قصة « سرفانتس » المشهورة باسماء عربية . وهي محاولة تدل على اخلاص ذلك الجيل من الادباء في جهودهم . ولم يكن شاعرنا وتشترك ينقصه ذلك الاخلاص في اعماله الادبية . بل لقد كان اخلاصه مقروناً بالجرأة وحرية الفكر فكان الى جانب شاعريته وأدبه خطيباً قوي النفس اتفق انه في سنة ١٨٨٩ التي خطاباً في تاريخ التمدن الانساني على غرار خطاب جان جاك روسو في الاختلاف بين حالات الناس « عدم مساواة الناس » ونشر الخطاب في صحيفة الاهرام فكان له أثره العظيم الذي ادى الى تعرفه بتلاميذ جمال الدين الافغاني ولاسيما امير بلغاء ذلك العصر وسيد خطبائهم ونعني به أديب بك اسحق وكان وتشترك يدير جريدة مصر ويحررها . ونحن نعلم مقام اديب بك اسحق وفضله واثره العظيم الذي خلفه في ادباء العصر الاخير لجمل ديمتري بك — وكان لا يزال شاباً مملوءاً حماسة يعمر قلبه الاخلاص والوطنية والشعور القومي — يكتب المقالات والرسائل في جريدة مصر . ولاشك في ان الذين يحتفظون بذكرى اديب بك اسحق يغبطون ديمتري بك خلاط على الخفية التي نعم بها بصداقة خطيب عصره

صاحب جريدة مصر . ولا شك ان هذه الشارقة وغيرها لم تكن بلا تأثير في شاعر ناشيء قد ادّخر له الزمن القيام بجهود ادبية ومادية من الطراز الاول

وفي الحقيقة ان ديمتري بك خلاط جعل يباري بقلمه واتخذ من جريدتي مصر والاهرام ميداناً لاظهار مواهبه وبلاغته فنشر في الاخيرة رواية «عبرة النفس» ضمنها افكاره الحرة عن دياجي الاستبداد التي كانت مخيمة وتتشعر على افق الشرق وكان ذلك قبيل سنة ١٨٨٢ وكذلك شهد ديمتري بك خلاط خير عصر من عصور الادب في مصر ، هو ذلك العصر الذي اشتهر بالاسماء الخالدة التي تستحق تمجيدنا واعترافنا بالجميل، عصر جمال الدين الافغاني ومحمد عبده وادیب اسحق وعبد الله نديم وابراهيم اليازجي وغيرهم من الذين اقاموا قواعد هذه النهضة وبنوا للاختلاف ذلك الهيكل العظيم الذي نمجده الى اليوم

وفي ذلك العصر الذي امتاز بتحرره من القيود عاش ديمتري بك خلاط . ولا شك ان ارتباطه بالعلاقات الادبية مع عظماء ذلك العصر قد وهب لتفكيره كثيراً من الحرية والروح العملي الذي هو اساس الانتاج . ولما كان ديمتري بك خلاط قد هبط مصر قبيل الثورة العرابية وشهد حريق الاسكندرية سنة ١٨٨٢ لم يكن من الممكن ان يشذ عن الحالة التي سادت مصر في ذلك الوقت ، فانهُ عقب خمود تلك الحركة استأنف الناس في مصر اعمالهم وكان ذلك بقوة وجهد عظيمين كما يكون عادة عقب الفترات التي تشل فيها حركة الاعمال فاختار ان يقف كل جهوده على توسيع دائرة اعماله التجارية وكان لا بد ان تعينهُ مواهبه وذكاؤه الفطري على النجاح فكان اول ما فكر فيه كما قلنا استيراد انواع من البضائع من معادنها وغيرها على خلاف ما يفعل سائر التجار ولم يستنفد العمل التجاري مع ذلك جهوده فقد كان يسترق الوقت للاطلاع والتأليف ولم يترك وقتاً يفلت منهُ دون ان يقيد رسالة او ينظم قصيدة وكان من حظه وحظ الادب وتتشعر ان قدم استاذه وصديقه العلامة الدكتور يعقوب صرّوف مع رفيقه الدكتور فارس نمر فنقلا الى القاهرة ادارة المقتطف وانشأ بالاشتراك مع المغفور له شاهين بك مكاريوس جريدة المقطم فظلّ من ذلك الحين موالي المقطم والمقتطف عقالاته وقصائده . ونذكر انهُ في سنة ١٨٨٨ نشر في المقتطف قصيدة سماها « القصيدة الهندية » وهي من بدائع الشعر العصري ومن خير ما نظمه شاعرنا منها قوله : —

أراك في يقظة من لوعة الألم ... إني شبيهك مكلوم فمي كلمي
أصغي ولا تعجبي مما اصبت به ... اني سعيت الى حتفي على قدمي
وقد حصدت ثمار الوجد يانعة ... لما زرعت بذور الصبر والنقم
وهكذا الذنب مشفوع بنقمته ... وصاحب البرّ لن يشقى ولم يضم

وقد نشرت هذه القصيدة في خير صحف العلم والادب في الشرق العربي وفي مصر حيث امتازت الاكثرية بتذوق الشعر الجيد وتقديره . نقول انه بلغ من استحسان القراء لهذه القصيدة ان المقتطف اعاد نشرها كاملةً بعد سنوات

ومثل ديتري بك خلاط الرجل الذي كان حب الاطلاع قد استحوذ على ذهنه ، وكان شغفه بالجديد والطريف مزية لمواهبه كشاعر عصري وأديب ملم باللغات الحية ينقل عنها مختارات الرسائل بذوق سليم ومقدرة فائقة — كان من الطبيعي ان تحمله مهنته كتاجر الى القيام برحلة واسعة في انحاء اوربا فجعل زيارته لمعرض باريس الذي اقيم سنة ١٨٩٠ وسيلة لتحقيق هذه الرحلة التي اطلع فيها على مراكز الصناعة والتجارة في العالم المتمدن وقيد ملاحظاته كتاجر واسع المعاملات او كاديب دقيق الملاحظة ميال بفطرته الى الطريف من الاشياء فجاب اوربا غرباً وشرقاً وزار متاحفها والاوساط الكبيرة ورافقته في تلك الرحلة زوجته الفاضلة وهي من السيدات المستنيرات تجيد مع لغتها العربية الانجليزية والفرنسية وتحسن الكلام بالايطالية واليونانية والالمانية . ونعلم ان والدها المرحوم وهبة الله كرم عني بتثقيفها عناية كبيرة ونعتقد ان من النعم الكبرى ان تكون الزوجة مستنيرة تشارك زوجها إفكاره وطباعه وتعينه في جهوده كذلك كانت مدام ديتري بك خلاط وقد جمعت الى هذه الاستنارة اخلاقاً سامية وتواضعاً كبيراً ولا تزال تساعد زوجها في اعماله وتقيد ما يمليه عليها بعد ان حال الداء الذي اصابه في عينيه عن ادائه لهذه المهمة

ولما عاد من رحلته وضع كتابه النفيس الذي اسماه « السمير في السفر » وضمنه ملاحظاته ومشاهداته وظهرت في ذلك الكتاب مواهب الشاعر والاديب الاريب في تصوير المدن والناس ووصف العادات ولولا ان اصيب منذ سنوات بداء كان يوشك ان يودي بحياته وكتب له الشفاء منه لما انقطعت اعماله الادبية الجليلة التي كانت تواكب مجده ونجاحه الكبيرين في ميدان الاعمال

ولقد زرت ديتري بك اخيراً في منزله وسرني ما شاهدته في فردوسه الارضي كما يسميه وحسب هذه التسمية دليلاً كبيراً على حب الشاعر التاجر لغناء الذي تتولاه سيدة من انبل المقبلات وافضلهن خلقاً فانشدني ابياتاً فكهة شكا بها الداء الذي اصابه في عينيه « كتراكت » وحجب النور عنهما ضمنها مصراعاً من شعر لبيد قال : —

ولقد سئمت من الحياة وطولها ... وسؤال اهلي ماذا تأكل في غد
أكبيبة ام سمكة مشوية ... ام لون أدز بالفراخ مزود
ام هل تروم السير في سيارة ... تطأ الثرى في خفة كالهيدهد

ومنها : — كلاّ . فما من لذة مذ مقلتي ... حرمت قراءة كل سفر جيد
حسبي ضباب بالعيون مخيم ... في كل آن بالظلام مهددي

وانشدني قصيدة اخرى عن الحرية قال — :

جاءت مقنعة بالحلم زائرة ... تشق صدر الدجى في طلعة الفجر
فقلت يا مهجتي طال البعاد فهل ... يبقى الحجاب على محياك والنحر
هلاّ تميطينه قالت أتأذن لي ... رؤيا الرقيب فيدري كامن السر

ومنها :— تبرعت من هوى المحبوب في زرد ... يرد سهم العدى بالذل والكسر
ولطف ليس جميلاً الا صادفه ... قولاً وفعلاً شريف القصد والفكر
ومنها :— بالله يا معشر العشاق فاتئدوا ... وقلبوا الرأي بين الحلم والعبر
فهل تظنون قلبي كرة صنعت ... لعبة الناس بين الكر والفر
ومنها :— هل حالة القفص المصنوع من ذهب ... لنفسنا فرج من خيفة الحصر

وبقي ديمتري بك خلاط ينهض بأعماله التجارية غير مهوض من دون ان ينقطع عن الاشتغال بالكتابة والشعر. وفي سنة ١٩٢٠ نقلت جرائد سوريا قصيدته اللبنانية التي نشرها في المقطم يؤيد بها رأي اللبنانيين في ضم مدن صيدا وبيروت وطرابلس الى لبنان بعد انفصالها عنه سنة ١٨٦٠ وكانت منه بمنزلة القلب من الجسم فأفضى السعي الى ان رفعت الدولة المنتدبة ذلك الجور عن لبنان واعادته الى حدوده القديمة واطلقت عليه اسم لبنان الكبير

وكذلك كان شاعرنا الجليل مرفقاً الى القيام بجهود مشكورة في دائرة السياسة كترفيقه في الشعر والادب

وفي غضون ذلك كان تقدير صفات ديمتري بك خلاط من جميع الذين عرفوه وعرفوا فضله ومواهبه . فانعم عليه سنة ١٩١٧ برتبة البكوية تقديراً لمكانته وكان من قبل قد اشترك في عضوية بعض الشركات والجمعيات لاسيما مجلس ادارة البورصة ومجلس ادارة شركة الملح والصودا والجمعية الخيرية للسوريين الارثوذكس وهو الذي تولى تصفية البورصة من المساهمين وكان وقتئذ قد احرز مكانته العظيمة في الدائرة التجارية مقدار ما ذاعت شهرته كاديب وشاعر . وفي سنة ١٩٣٦ انعمت عليه الحكومة البلجيكية بنشان رفيع تقديراً لمكانته وجهوده في سبيل شركة ترام الاسكندرية والرمل

***

هذه الحياة الكبيرة الحافلة بالاعمال والانتاج القيم التي جعلت من ديمتري بك خلاط تاجراً عظيم المكانة تستحق ان نسوقها لشباب هذا العصر لكي يقتدوا بها فان الاعمال المادية لا تعوق ابداً الاشتغال بالتفكير المنتج ولا تحول دون الانتاج في الادب . لقد رأينا كيف ان شاعرنا كان يقوم بتوسيع علاقاته ومعاملاته التجارية دون ان يمنعه ذلك من الاشتهار في الادب والشعر . ولا بد من معرفة الصفات التي امتازت بها شخصية ديمتري بك خلاط فهو رغم اشتغاله بالاعمال التجارية التي رفعت مكانته قد اشتهر بميوله الانسانية وتواضعه وهدوء نفسه

وديمتري بك قد بلغ اليوم حدود السبعين ولا يزال على عهده من الصراحة والجرأة وتلك الدقة التي الفها في تنظيم حياته واعماله . ولعل ذلك اظهر صفاته وهي الصفات التي كونت عناصر نجاحه . وهو رغم انسبغة الاوربية التي استحوذت على حياته بداعي الضرورات الاجتماعية فان هذه الحياة في جوهرها تمثل الاحتفاظ بالتقاليد الشرقية